خطبة صلاة الجمعة 1/ 11/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بدء الوحي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45]، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة الثانية عشرة من سلسلة دليل إرشادي، لكني وبمناسبة دخول شهر ربيع الأول شهر ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سأجعل خطب الربيعين حديثاً عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة وأقطف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا، لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبةً، ولنجتهد به اقتداءً، ولنكثر عليه صلاةً، صلوات ربي وسلامه عليه.

عنوان سلسلة ربيع: علمتني السيرة النبوية.

وعنوان خطبة اليوم: **بدء الوحي**.

أيها الإخوة:

لما اقتربتْ سنُّه صلى الله عليه وسلم من الأربعين حبب الله إليه الاختلاء في غار حراء- وحراء جبل يقع في الشمال الغربي من مكة- فكان يخلو فيه يتعبد الليالي ذوات العدد، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، وربما بقي في حراء من الهلال إلى الهلال، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك.

روى الإمام البخاري عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحي وتقول:

«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: "فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 1 - 3]" فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا

ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ».

ثم روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: 1 – 5]. **فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ».**

أيها الإخوة:

فيما سبق من حديث بدء الوحي وفترته دروس وفوائد يحتاجها كل منا، وقد علمتني السيرة النبوية فيها أمرين: **أولهما**: اتخذ لنفسك حراء. **ثانيهما**: اجتهد في العلم والعمل.

أولا: اتخذ لنفسك حراء:

أيها الإخوة: إنّ للخلوة التي حُبّبتْ إلى قلبِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قُبيل البعثة؛ أهميةً كبرى في حياة المسلمين عامة والداعين إلى الله بصورة خاصة.

فالمسلم محتاج إلى ساعات من العزلة والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها في فترات متقطعة متكررة من الزمن، يخلو فيها بنفسه يحاسبها، ويتفكر في آلاء الله ونعمه ويتأمل في مدى جلاله وعظمته، ويشتغل بذكره سبحانه وتعالى بالقلب واللسان، ويتفكر في طريق إيصال رسالة الله لأمته وللناس أجمعين.

فإذا قام المسلم بذلك رَقَت روحه، وصفا فكره، واستنار قلبه، ورَقَّ طبعه، وسمت نفسه عن شهوات الدنيا وسفاسفها، وانطلق يحمل همّ الأمة ليخرجها بنور الرسالة الإلهية من الظلمات إلى النور، من الجهل إلى العلم، من الفقر إلى الغنى، من المرض إلى العافية، من الانغماس في شهوات المادة إلى الارتقاء في معارج الفضيلة والكمالات.

فخلوة حراء هي العدة الكبرى التي ينبغي أن يتسلح بها المسلمون عامة والدعاة إلى الله خاصة، وتلك هي العدة التي جهز الله بها حبيبه محمداً صلّى الله عليه وسلم ليقوم بأعباء الدعوة الإسلامية.

وها هو القرآن الكريم في ذكره لحديث الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى يتحدث عن كهفهم الذي أووا إليه وتُسمى السورة كلها بسورة الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16] فالعزلة عن غير الله توجب الوُصلة بالله، بل لا تحصل الوُصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله.

وليس المقصود للمسلم بحراء والكهف أن يعتزل الناس في مغارة في جبل، ولكن المراد أن تخلو بربك في بيتك أو في مسجدك كل يوم في ساعة السحر أو عند الفجر أو قبيل الغروب، والمراد أن تخلو بربك كل أسبوع في ساعات من ليلة الجمعة ويومها، والمراد أن تعتكف فتخلو بربك كل عام في العشر الأخير من رمضان ونحوه...؛ لتشتغل بذكر الله والضراعة إليه والتفكرِ في آلائه ونعمائه وعظيمِ فضله وكثيرِ تقصيرك ولتتفكر في طريق إيصالك رسالة الله إلى خلقه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190، 191]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» [البخاري].

أنشد ابن الفارض يقول:

ولقدْ خلوتُ مع الحبيبِ وبينَنا ... سرٌّ أرقُّ من النسيمِ إذا سرى

فدُهشْتُ بينَ جمالِه وجلالِه ... وغّدا لسانُ الحالِ عنّي مُخبِراً

فأَدِرْ لِحَاظَكَ في محاسنِ وجْهِهِ ... تلْقَ جميعَ الحُسْنِ فيه مُصَوَّرا

لو أنّ كلَّ الحسنِ يكملُ صورةً ... ورآهُ كانَ مُهلّلاً ومُكبّراً

زِدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تَحيُّرا ... وارحمْ حشىً بلظى هواكَ تَسَعّراً

ثانياً: اجتهد في العلم والعمل:

ثاني فوائد حديث بدء الوحي – التي يسمح بها الوقت– أنّ أول ما نزل من كتاب الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: 1] ثم ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، في دلالة واضحة أنّ هذا الدين تحرير للإنسان من الجهل والكسل، إنه دين العلم والعمل، اقرأ قم، والعلم قبل القول والعمل، أولاً اقرأ ثم قم، فمن أراد أن يعلو في هذا الدين فعليه بالعلم: بقراءة العلم، بلزوم مجالس العلم، بصحبة أهل العلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن فضلَ العالِمِ على العابِدِ كفضل القَمَرِ ليلةَ البدرِ على سائر الكواكِبِ**» [أبو داود]، ومن أراد أن السير على هدي النبي صلى الله عليه وسلم فعليه بالعلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دِيناراً ولا دِرْهماً، وَرَّثوا العلم، فمن أَخَذَهُ أخذ بِحظٍّ وَافِرٍ**» [أبو داود]، ومن أراد طريق الجنة فليسلك درب العلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سلك طريقاً يَلْتَمِسُ فيه علماً: سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة**» [مسلم].

قال الصالحون: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ولو اتخذه لعلّمه.

ومن بعد العلم مطلوب من المسلم أن يقوم ليعلّم وليأمر بالمعروف ولينهى عن المنكر ولينصح ولينذر وليبشر ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، منذ نزلت ﴿قُمْ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ولم يقعد إلى أن وافاه الأجل ممتثلاً أمر الله تعالى بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ونصح الأمة.

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من فوائد حديث بدء الوحي، علمتنا السيرة النبوية من خلاله أن يتخذ كلٌّ منا لنفسه حراء يذكر فيه ربه ويتفكر في خلقه ويحاسب نفسه.

وعلمتنا السيرة النبوية أن يجتهد كل منا في تحصيل العلم النافع والعمل الصالح؛ لأن عنوان رسالة الإسلام العلم والعمل وتحرير الإنسان من الجهل والكسل.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب 56].

والحمد لله رب العالمين